معاول الهدم

معاول تهدم بناء الزوجية

١. المعاصي.

وهي أكبر معول يهدم جدار الحب، ويسقطه، وربما سوّاه بالأرض؛ لأن المعصية تَجرؤٌ على ما حرم المولى ﷻ، ومن تجرأ على ربه، وأضعف علاقته به، فكيف بعلاقته بمن هو دونه؟

ولن نتحدث عن كبائر الذنوب والآثام من نحو التهاون في الصلاة، وأكل الربا، ورمي المحصنة وغير ذلك، فإن الحياة ربما تكون مستحيلة إذا كان الزوجان أو أحدهما مقارفًا لهذه الآثام.

لكن دعونا نتحدث عن بعض المعاصي التي يقع فيها أحد الزوجين أو كلاهما مما يؤثر سلبًا على استقرار حياتهما، بل ربما يقوض عش الزوجية.

أ. الخيانة الزوجية.

وهي قاصمة الظهر، ومؤذن انهيار العلاقة الزوجية، وقد سهلت، وعمّت وطمت في هذا الزمان، نسأل الله العافية.

وقد أسهمت وسائل الإعلام الهابط في نشر الرذائل، وصورت الخيانة الزوجية كأمر عابر لا في حق الرجل ولا في حق المرأة، فإذا خان الرجل زوجته، فعلى حياتهما الحرب والخراب والدمار، وليس السلام.

ومما يؤسف له أن يكون انتقام الزوجة بالأسلوب نفسه، فتسلم عرضها للآخرين بدعوى التنفيس والانتقام، ناسية الوعيد الشديد الذي ينتظرها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

روى البخاري في الأدب المفرد: «**ثلاثة لا يسأل عنهم: رجل فارق الجماعة وعصى إمامه، فمات عاصيًا، فلا يسأل عنه، وأمة أو عبد أبق من سيده، وامرأة غاب زوجها، وكفاها مؤونة الدنيا، فتبرجت، وتمرجت بعده**»(١).

وروي عن عبدالله بن عمرو ﷺ قوله: «**ألا أخبركم بالثلاث الفواجر؟ وذكر منهن وامرأة السوء: إن شهدتها غاضبتك، وإن غبت عنها خانتك**»(٢).

ومن صور الخيانة ما يلي:

١. العلاقات غير الشرعية، وهي الطامّة إن وقع صاحبها في فاحشة الزنا الذي يعد من كبائر الذنوب، وبريدها النظر المحرم، وسماع الأغاني الماجنة، ومشاهدة أفلام الدعارة، ثم مهاتفة، ثم مقابلة.

---

(١) صححه ابن حبان في صحيحه (١٠/٤٢٢ رقم ٤٥٥٩)، والألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم ٤٥٩).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/١٠٠-١٠١ رقم ٩١٠٧)، ولفظه: عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «**تعوذوا بالله من ثلاث فواقر: تعوذوا بالله من مجاورة جار سوء، إن رأى خيرًا كتمه، وإن رأى شرًّا أذاعه، وتعوذوا بالله من زوجة سوء، إن دخلت عليها ألسنتك- كذا قال- وإن غبت عنها خانتك، وتعوذوا بالله من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر**».

قال الشاعر:

وكنتَ متَى أرسلتَ طرفَك رائدًا ... لقلبِكَ يومًا أتعبتْك المناظرُ

رأيتَ الّذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ ... علَيه ولا عَنْ بعضِه أنتَ صابرُ

وقال آخر:

كلُّ الحَوادثِ مَبْداها من النظرِ ... ومعظمُ النّارِ منْ مُسْتَصغَرِ الشَّررِ

كَمْ نظرةٍ بلَغَتْ منْ قلْبِ صاحبِها ... كَمبلَغِ السَّهمِ بين القوسِ والوترِ

والعبدُ ما دام ذا طَرفٍ يُقلّبه ... في أَعينِ الْغيدِ مَوقُوفٌ علَى الخطَرِ

يَسرُّ مُقلتَه ما ضَرَّ مُهْجَتَه ... لا مَرْحبًا بسُرُورٍ عادَ بالضَّررِ

وفي مثل هذا يقول المتنبي:

وأنا الذي اجْتَلَتِ المنيةُ طَرفَه ... فَمَنِ المطالَبُ والقتيلُ القاتلُ؟

وقال آخر:

لَواحظُنا تَجني ولا علمَ عندَنا ... وأنفسُنا مأْخوذةٌ بالجَرائرِ

ولم أَرَ أغبَى من نفوسٍ عفائفٍ ... تصدِّقُ أخبارَ العُيونِ الفَواجرِ

ومَنْ كانتِ الأجفانُ حُجّابَ قلبِه ... أَذِنَّ علَى أحشائِه بالفَواقرِ

ولو يعلم صاحب الهوى ما يورثه إطلاق النظر وإدامته من ذل وهوان وهم وكآبة، وظلمة في وجهه ونكتة في قلبه، لما قلب بصره فيما حرم، ولما جر على نفسه ما فيه حزن وندم.

يقول الله ﷻ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

ويقول ﷺ: «**إن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غضّ بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه نورًا**»(١).

كما لو علم ما تورثه لذة الحرام من الخزي والعار في الدنيا والآخرة؛ لفكر قبل أن يقدم.

تفنَى اللَّذاذةُ ممن ذاقَ صَفْوتَها ... مِنَ الحرامِ ويبْقَى الإثْمُ وَالعارُ

تبقَى عواقبُ سُوءٍ فِي مغبَّتِها ... لا خيرَ فِي لذَّةٍ مِنْ بعدِها النَّارُ

هكذا العصاة: يرون اللذة، ولا يخشون العاقبة، ومع مداومة المعصية تصبح عادة، فلا يكاد يشبع إلا من حرام، حتى يقول أحدهم - وكان أعمى البصر والبصيرة - لزوجته: ما أطيبك حرامًا، وكانت قد تمثلت له امرأة أخرى.

تَصرمُ لَذاتُ المعاصِي وتَنْقَضِي ... وتبقَى تباعاتُ المعاصِي كَما هِيا

---

(١) هذا الحديث مركب من حديثين:

الأول: «**إن النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، من تركها مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه**». أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/١٧٣ رقم ١٠٣٦٢)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣/١٧٧ رقم ١٠٦٥): ضعيف جدًّا.

والثاني: «**ما من عبد يكف بصرَه عن محاسن امرأة، ولو شاء أن ينظر إليها نظر، إلا أدْخَلَ اللَّه تعالى قلبَه عبادة يجد حلاوَتَها**». قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٢/٩٤٣ رقم ٥٩٧١): موضوع.

لقد تغير زماننا، واستطاعت العولمة بآلتها الضخمة أن تغير في طباعنا وأخلاقنا، فكثر الدخن، وقلت النماذج والقدوات، وإن كانت لم تنتهِ ولن تنتهي بإذن الله.

قصة في مقال للشيخ سلمان العودة تحت عنوان (وفاء زوج) ذكر ما مضمونه: أن مسنًّا في الثمانين من عمره دخل على الطبيب لإزالة بعض الغرز من إبهامه، وكان يحدث الطبيب، ويقول: إنه في عجلة من أمره، فلديه موعد في الساعة التاسعة.

قدم الطبيب له كرسيًّا، وتحدث معه، وهو يزيل الغرز.

هل لديك موعد مع طبيب آخر؟

أجاب: لا؛ ولكني سأذهب إلى دار الرعاية؛ لتناول الإفطار مع زوجتي.

ولماذا دخلت زوجتك دار الرعاية؟

هي هناك منذ سنوات؛ لأنها مصابة بالزهايمر (فقدان الذاكرة).

انتهى الطبيب من التغييرات اللازمة لجرحه، ثم سأله:

هل ستقلق زوجتك لو تأخرت قليلًا عنها؟

أجاب الرجل: كلا؛ إنها لم تعد تعرف من أنا منذ خمس سنوات.

إذن، لماذا تذهب إليها؟

ابتسم الشيخ، وهو يضغط على يد الطبيب، ويقول: هي لا تعرف من أنا.. لكني أعرف من هي؟

يقول الشيخ سلمان: استعدت هذه القصة الجميلة، بعدما هاتفني زوج شاب لأشفع له عند زوجته؛ بعدما اكتشفتْ أنه على علاقة محرمة مع فتاة أخرى، وهو في مطلع حياته الزوجية.

وهاتفتني زوجة شابة تتحدث عن خيانة زوجها، وهما في السنة الأولى من الزواج.

لقد وصف القرآن الكريم عقد الزواج (بالميثاق الغليظ) والسياق هنا لمصلحة المرأة، وأنها أخذته من الرجل: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾. [النساء: ٢١].

إن صحبة الزوجين تعني رصيدًا عاطفيًّا يكبر مع الزمن، وشجرة تمتد أغصانها وتبسق، وتضرب جذورها في أعماق الأرض، وليست الحياة الزوجية صلة مصلحية تزول بمرور الزمن، ولا شراكة اقتصادية تقوم على الكسب، ولا رفقة سفر عابر، إنها امتزاج روح بروح، هدف واحد ومستقبل واحد وأسرة واحدة متماسكة.

ترى أي نموذج يقبع في داخلك، ويستحوذ على إعجابك؟

الأعرابي الذي طلق زوجته بعد خمسين عامًا، فقالت له: تفعل هذا بعد هذا العمر وطول العشرة؟، قال: والله ما لك عندي ذنب غيره.

أم رسول الهدى محمد بن عبد الله ﷺ الذي ظل وفيًّا لخديجة، حتى بعد موتها، فغارت منها عائشة ﷺ وقالت: «أبدلك الله خيرًا منها»، فكان يعدد فضائلها، ويقول: «**ما أبدلني الله خيرًا منها، إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»[١].

أين خائنو العشرة عن هذا النموذج الرائع في الوفاء؟

٢. ومن صور الخيانة الزوجية التبرج والسفور، خاصة في الأسواق والأماكن العامة والخضوع بالقول للرجال الأجانب، وهي مقدمات لما هو أسوأ، وإنك لتعجب من بعض النساء في المتاجر، تحدث البائع، وربما ضاحكها ومازحها، وربما ساعدها على وضع الخاتم أو الحلي في يدها، وأعجب أكثر ممن يوصل محارمه بالسيارة إلى بوابة السوق، ثم يَعِدُهن بالعودة بعد ساعات، ولو كان السوق خاصًّا بالنساء لكان الأمر هينًا.

---

(١) هذا الحديث مركب من حديثين:

الأول: عن عائشة قالت كان النبي ﷺ إذا ذكر خديجة أثنى عليها فأحسن الثناء قالت فغرت يوما فقلت ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدق قد أبدلك الله ﷻ بها خيرا منها قال ما أبدلني الله ﷻ خيرا منها قد آمنت بي إذ كفر بي الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء. أخرجه أحمد (٤١/٣٥٦ رقم ٢٤٨٦٤)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة بهذا السياق (١٣/٤٨٤ رقم ٦٢٢٤).

والثاني: عن عائشة ﷺ قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة. فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد». أخرجه البخاري (رقم ٣٨١٨).

إن في هـذه التصرفـات من خراب البيوت وتدمـير نواة الأسرة ما لا يخفى على أحد، فضلًا عن التحرشات، والخلوة بالمرأة في بعض المتاجر، وحضور الشيطـان في تلك الأماكن، فهي موطنه الأصلي وبستانه ومنتجعه.

٣. **ومـن صـور الخيانـة**: أن تُدخـل المـرأة في بيت زوجهـا مَنْ يكـره، فتستغل غيبته، لتجعل مـن بيته حانوتًا للفاسقين وكانونًا للفاسقات، فأين حقه في حفظ بيته وعرضه وماله؟!

إن هـذا الصنيع من التفريط العظيم في حفـظ الزوج في أثناء غيبته؛ لأن فيه إضاعة لماله، وخرابًا لمتاعه وأثاثه وإهمالًا لأبنائه وبناته.

٤. **ومن صور الخيانة**، أن تمتنع الزوجة عن الحمل دون إذن الزوج، وذلك إما بربط الرحم أو استخدام حبوب منع الحمل؛ لأن إنجاب الأولاد حق للزوجين، أو هو حق للزوج لا يسقط إلا بإذنه.

ب. عصيان المرأة لزوجها.

والعصيـان لـه صور شتـى، فهجـره عصيـان، والامتناع عن فراشـه عصيان، والخروج دون إذنه ولو إلـى أهلها عصيان، وعدم القيام بخدمته في عرف البلد عصيان.

وقد جاء الوعيد الشديد لهذا النموذج السيئ من النساء.

يقـول رسـول الله ﷺ: «**إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها، فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها، حتى يرضى عنها زوجها**»[١].

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأتِه، فبات غضبانَ عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح**»[٢].

وقد وقع الكثيرات من نساء المسلمين في هذا المأزق مع الأسف، بدعوى المساواة تارة، وبدعوى أن من حق المرأة أن تجادل، وتناقش، وتحاور، وتبرز شخصيتها تارة أخرى، وكل هذا مما ابتلي به المسلمون اليوم من الإعلام القذر الذي يقوده الغرب بصورة عامة، واليهود بصورة خاصة.

ويقع بعد هذا كله وقبله، بُعد أكثر النساء عن تعلم أمور دينهن والتفقه فيه، فضلًا على معرفة حقوق الزوج وواجباته.

بل إننا نسمع أن بعض الزوجات ترفض الرد على زوجها في مكالمة هاتفية، وهي مع صديقاتها؛ لتعطي رسالة أنها غير مكترثة بمكالماته أو محادثاته، بل ربما اغتابته بين زميلاتها ولمزته بأوصاف لا تليق، كالغبي والأهبل والغشوم، ناسية أنها بإيذائها له قد تستحق اللعنة وغضب الله، ودعاء زوجاته من حوريات الجنة لها بالثبور.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١٩٤)، ومسلم (رقم ١٤٣٦) (١٢١) واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥١٩٣)، ومسلم (رقم ١٤٣٦) (١٢٢).

عـن معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ: «**لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه، قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا**»[١].

ج- الوطء المحرم.

يرى بعض الأزواج مقاطع الدعارة المحرمة، وأفلام الجنس التي يروجها الفساق لإفساد المجتمع المسلم، فيحاول محاكاة ما يرى، فيأتي أحدهم زوجته في موضع الغائط، وقد يقنعها بجواز ذلك، أو يرغمها على فعل ذلك، فتستجيب مكرهة، وتنتكس الفطرة، فتحدث النفرة.

إن إتيان المرأة في دبرها من المعاصي التي روج لها أعداء الدين؛ ليقوضوا بناء الأسرة، وتنحدر بذلك إلى مهاوي الرذيلة، وحمأة الخطيئة.

وقد ورد في الحديث الوعيد الشديد لأصحاب هذه الفطرة المنكوسة، قال رسول الله ﷺ: «**من أتى امرأة في دبرها أو كاهنًا، فقد كفر بما أنزل على محمد**»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١١٧٤)، وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧١٩٢).

(٢) أخرجه الدارمي (رقم ١١٣٦)، والترمذي (رقم ١٣٥)، وابن ماجه (رقم ٦٣٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٦٨/٧ رقم ٢٠٠٦).

وعن ابن عباس ﷺ، قال: «جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: **وما أهلكك؟** قال: حولت رحلي الليلة. قال: فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئًا. قال: فأنزلت الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال: **أقبلْ وأدبرْ واتَّق الدبر والحيضة**»[١].

إن أصحاب الفطرة السليمة تأبى نفوسهم هذا الشذوذ، ولقد أثبت الأطباء قديمًا وحديثًا خطر هذه الفعلة، وأنها سبب لكثير من الأمراض الجنسية، وخاصة مرض الإيدز الذي ثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن أحد أسبابه هو الشذوذ الجنسي، والممارسات الجنسية المحرمة، إلا أن كثيرًا من الجهال يأبى إلا تلويث البيئة الزوجية النظيفة وتدنيس الفطرة السوية بموروثات فاسدة تسقط منارة الحب، وتهدم برجه العاجي، وتهلك الحرث والنسل، لتتبدل الألفة والمحبة بين الزوجين إلى البغضاء والكراهية، وتسوء العشرة بعد اعوجاج الفطرة وتشوهها.

د- ومن المعاصي المنذرة بانهيار الزوجية السباب والشتائم.

السب والشتم لا يغير الحاضر، ولا يمحو الماضي الأليم، بل يدمر المستقبل. بعض الزوجات - هداهن الله - لا تملك أعصابها كما يقولون، فتلجأ لسبب أو لآخر إلى إيذاء زوجها بكلمات جارحات،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٤٣٤ رقم ٢٧٠٣)، والترمذي (رقم ٢٩٨٠)، وحسنه. وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/١٩١).

فتصب جام غضبها عليه في هيئة شتائم متعاقبة، وتمطره من سحائب السباب، ويزداد الأمر سوءًا، عندما يحدث هذا أمام الأبناء، وربما تطاولت بعض الزوجات لتضرب زوجها.

والكثير من هذا الصنف من النساء يفعلن ذلك لتحقيق مآرب في المستقبل، أو لعدم تحقيق المطلوبات في الأيام الماضية.

ولا شك أن هذا الضرب منهن غير مدرك بحقوق الزوج، وما يترتب على هذا الصنيع من دمار وشتات.

وأقلهن عتابًا من (هذا الصنف) من تتجنب سباب الزوج علانية، لكنها تسب الأيام والليالي التي عاشتها معه، واليوم الذي عرفته فيه، ثم تضيف أن الحياة معه أصبحت مملة وتعسة وبئيسة، فتردد: ما هذا الحظ السيئ؟ ما هذه العيشة النكدة؟

ثم تضيف العبارة الرشيقة: (ما رأيت منك خيرًا قط) ليصدق فيهن كلام سيد المرسلين، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قال: «قال رسول الله ﷺ: «**أُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ. قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بِكُفْرِهِنَّ. قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ، قَالَ: يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ**»[1]. ومثل هذا الصنف يحتاج إلى وعظ ونصح قبل فوات الأوان.

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠٥٢)، ومسلم (رقم ٩٠٧).

ونصيحتي لأخواتي الزوجات، أن يتقين الله في أزواجهن، ويرجون ما عند الله ﷻ ومعرفة ما أعده الله ﷻ للمرأة الصالحة، يسبق رومانسية الرجل وعذوبة لسانه ورقة قلبه، فلا يمكن تبرير نشوز المرأة أو سبابها وشتامها لزوجها بأمور ثانوية كالجفاف العاطفي، وتصحر المشاعر عند الرجل.

إن المرأة العاقلة تحاول إصلاح ما فسد من الزوج، وتصبر على حماقاته، وتحاول محاورته وعتابه بالحسنى.

وليس بأساليب عقيمة، وأفهام سقيمة، فتلجأ إحداهن إلى الندم والجحود ونكران الجميل وإثارة المشكلات ونشر غسيل الأسى، والتأفف من مرافقته وزيارة أهله، والامتناع من إكرام ضيوفه، وربما هددت بترك البيت، وأي نشوز أكثر من هذا؟

يقول المولى ﷻ: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

وفي الآية الكريمة تدرج في التأديب: وعظ، ثم هجر، ثم ضرب.

فالوعظ أولًا: وهو التذكير بتقوى الله ﷻ، وعظم حق الزوج وما يترتب على ذلك من فوز أو خسارة، وفي الحديث: «**انظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣٤١/٣١ رقم ١٩٠٠٣)، والحاكم (١٩٠/٢ رقم ٢٧٦٩)، وصححه. وتبعه الألباني في آداب الزفاف (ص٢١٣).

والوعظ نافع ناجع مع الزوجة التقية، التي تخاف الله، وتحذر الآخـرة، بل هو أفضل طرق العـلاج؛ لأن الضرب في حقها ربما زاد الطين بلة.

أمـا الهجر: فهو المرحلة الثانيـة بعد الوعظ، وهو علاج ناجح للأنثى التي لا تبالي بالوعظ الكلامي، فيأتي كوعظ فعلي.

إن حرمان المرأة المضجع يعني عدم المبالاة بأنوثتها، وتجاهلها وعدم قبولها حتى تلين صلابتها ويستحيل عنادها إلى طلب المسامحة والتلطـف، فتعدل ميلتها، وتقيم اعوجاجهـا، وأعتقد أنه عند هذين الدواءين تنتهي الكثير من النساء عن نشوزهن، ويعدن عن غيّهن.

إلا أنـه يبقـى شريحة صغـيرة قد لا تستجيـب ذواتهن لهذين الدواءين، فلديهن حساسية مفرطة من هاتين الكبسولتين.

فالضرب هنا: هو الدواء الأخير لهذا الصنف من النساء، بل يجدي، وينفع مع من لا يردعه واعظ، ولا يزجره جفاء وهجر.

ولسـت هنا أحرض على ضـرب أزواجهـم، ولكني أذكر بشـرع الله الـذي أنزله على رسوله؛ ليكـون سببًا في الصـلاح، ومقوّمًا للاعوجاج.

والظاهـر - والله أعلم - أن الضرب يهـدف إلى تأديب المرأة نفسيًّا، فإن أثره النفسي أشد من أثره الجسدي، فهو يعني أن الأمر

وصل إلى ذروته، ويعني كذلك أن الوعظ والهجر والحوار لم يفلح في إقامة المرأة، وقد ضرب نبي الله أيوب امرأته، بل أمره الله بذلك ليوفي نذره، لكن كيف كان الضرب؟

إن ضرب المرأة لمجرد الضرب والانتقام هو سلاح العاجزين من الرجال، وقد ورد أن بعض صحابة النبي ﷺ كانوا يضربون زوجاتهم.

فقد ورد عن صفوان بن معطل رضي الله عنه أنه كان يضرب زوجته لإطالتها الصلاة في حديث شكواها من عند رسول الله ﷺ حينما قالت: صفوان يضربني إذا صليت، ويفطرني إذا صمت، ولا يصلي الفجر حتى تطلع الشمس، فأجابها صفوان: أما قولها: يضربني إذا صليت، فإنها تقرأ بسورتين، وقد نهيتها، وأما قولها: يفطرني إذا صمت، فإني رجل شاب، فلا أصبر: فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصوم المرأة إلا بإذن زوجها**». قال صفوان: وأما قولها: إني لا أصلي حتى تطلع الشمس، فإنا أهل بيت قد عرف لنا ذلك، ولا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس، قال النبي ﷺ: «**فإذا استيقظت فصلِّ**»[1].

إن صفوان لم يضربها على معصية، بل على طاعة، إلا أنه رأى أن كثرة الطاعات دون الالتفات إلى حق الزوج ليس من حق الزوجة، وكثرة الصوم قد منعه حق الاستمتاع بها.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨/٣٢٣-٣٢٤ رقم ١١٨٠١)، وأبو داود (رقم ٢٤٦١)، وأبو يعلى في المسند (٢/٣٠٨ رقم ١٠٣٧)، والحاكم (١/٤٣٥ رقم ١٥٩٤)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/٦٥)، وقال تعقيبا على كلام الحاكم والذهبي: وهو كما قالا.

وقد ورد أيضًا أن الزبير رضي الله عنه كان يضرب نساءه، ومنهن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، ونقل عنها أنه كان يضرب نساءه؛ ولذا قيل: (إذا كنت الزبير فابحث عن أسماء).

وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد، فعلى الزوج ألا يضرب ضرب المتشفي المنتقم، فلا يضرب وجهًا، ولا يجرح، ولا يقبح، ولا يحتقر، بل ضرب تأديب وإصلاح، والأفضل ألا يضرب وقت الغضب حتى لا يتجاوز الحد، ويجره الغضب إلى ما لا تحمد عقباه.

إن من المحزن والمؤسف أن يضرب الرجل زوجته، فيؤلم ويوبخ، ويقبح، ثم يضاجعها من يومه، كما قال النبي ﷺ: «**يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد فلعله يضاجعها في آخر يومه**»[1].

إن احتقار المرأة - فضلًا على ضربها - يجعلها تدقق في كل كلمة تقولها، ويجعلها تعيش ألمًا داخليًّا حادًّا، وينعكس هذا كله على سلوكها وتصرفاتها، ومن ثم على حياة زوجها وأبنائها.

قاعدة لتغيير السلوك

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٤٢)، ومسلم (رقم ٢٨٥٥).

إننا نريد بتفكيرنا أن نغير سلوك شخص ما، فإذا ما حاولنا ذلك متجاهلين عقله ومشاعره، فلن نصل إلى مبتغانا بسهولة.

إننا بمحاولة تغيير سلوك الإنسان، دون النظر إلى قناعة الشخص وقلبه وأحاسيسه وروحه، نكون قد ألغينا إنسانيته، ورفضنا آدميته.

ولا أريد هنا أن أطيل الكلام، وأسهب في المقال، لكن دعني أضرب مثالاً يعرفه الجميع في تعامل نبي الهدى ﷺ مع من يريد تغيير سلوكهم المعوج.

روي أن شابًّا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال الرسول ﷺ: «**اُدْنُهْ**، فدنا منه، فقال له: **أترضاه لأمك؟** قال: لا، والله، جعلني الله فداءك، قال: **ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**، ثم قال: **أتحبه لابنتك؟** قال: لا، والله، قال: **كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم**، ثم زاد: **لأختك، لعمتك، لخالتك**، وتكرر ما قال الرجل، ثم وضع يده على صدر الشاب، وقال: **اللهم، اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٥٤٥/٣٦ رقم ٢٢٢١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٥/٧ رقم ٥٠٣٢)، والطبراني في الكبير (١٦٢/٨ رقم ٧٦٧٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤١/١ رقم ٥٤٣): رواه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧١٢/١ رقم ٣٧٠).

ركز هنا معلم البشرية ﷺ على شيئين:

١- توقير الشخص ومحبته والمحافظة على مشاعره وإنسانيته، وتمثل ذلك في قوله: «أُدْنُهْ»، وفي وضع يده على صدره والدعاء له، وكأنه يقول: إني أحبك، وأريد لك الخير، ومتعاطف معك (احترام المشاعر).

٢- احترام عقل الشاب، فإن الله ﷻ زيّن الإنسان بعقله؛ ليفكر ويرى الراجح من الأمور، فلم يصادر عقلية الشاب، بل تحاور معه ليريه الصواب، ويهتدي إليه عقله (احترام العقل).

أردت هنا أن نلجأ إلى هذا الأسلوب مع أزواجنا؛ لنستطيع تذليل الصعاب، ولنصل إلى الحلول الناجعة، عندما نحترم بعضنا، ونتحاور بأدب فإنه أدعى لبقاء الألفة، ودوام المحبة.

المقصد: إن تبادل الاتهامات بين الزوجين، واستخدام الألفاظ التأديبية التي تجرح المشاعر، وتزرع الضغائن، وبسط اليد واللسان بالسوء يهدد العلاقة الزوجية، وينذر بخطر الفراق.

فعلينا أن نتقي الله في أنفسنا أولًا، وفي أزواجنا، وفي أولادنا، وفي مجتمعنا المسلم، فصلاح المجتمعات من صلاح الأسر، التي تُعدّ النواة الأولى في عملية البناء، وفقنا الله لما فيه الخير والصلاح.

٥. الاستماع للعناصر الأجنبية:

مما يخشى على رابط الزوجية، وحبلها المتين، الاستماع لكل فاسق ناعق وما أكثرهم هذه الأيام، والمسارعة في تصديقه، لقد كثرت وسائل الإعلام المكذوبة، وانتشرت وكالات الأنباء الشيطانية، وصار همها تعرية الأسرة من قيمها وتماسكها، والتفرقة بين الزوجين، وهو العمل الذي يقرب الشياطين من كبيرهم زلفى.

وقد حذر القرآن الكريم من أخذ الأنباء وتصديقها دون التثبت والتبين، وإلا فإن العواقب ستكون غاية في الوخامة؛ لأننا سنتصرف بجهل، فنندم ولات حين مندم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

إن من الخطأ الجسيم أن تصبح رؤوسنا مستعمرات لغيرنا، فندعهم يحتلون عقولنا، فيملون علينا تعليمات نتصرف من خلالها، وكأنها من صنع أفكارنا.

إننا لن نستطيع تكميم أفواه الآخرين، أو اعتقال ألسنتهم، لكننا نستطيع التريث في الأحكام والتثبت من الأقوال.

إن كلمة صغيرة قد تؤدي إلى نشوب حرب بين فريقين، فكيف بشخصين اثنين؟ وكم فرقت كلمات بين أزواج وزوجات، وفتحت قلاعًا محكمات.

قصة **أُعطي** أحد العبيد مبلغًا من المال في سبيل أن يفرق بين سيدة وسيدها؛ أي بين الزوج وزوجته، وكان مما فعل أن أوعز إلى الزوجة أن سيده يريد أن يتزوج بأخرى، وأنها يجب أن تفعل شيئًا قبل فوات الأوان، ولم يهدِها عقلها لأن تتثبت وتتبين، بل كان همها هو منع حدوث هذا الأمر بأي ثمن، واستشارت هذا الشيطان الذي ربما أوعز إليها أيضًا بأن لديه العصا السحرية والمارد الخارق لحل ما استعصى من الأزمات.

قال لها: الأمر هين، فقط ائتني بشعرات من لحيته أو شاربه، ودعي باقي الأمر لي، قالت: وكيف يمكن أن آخذ من لحيته؟

قال: إذا استغرق في النوم، فخذي بالسكين من أسفل ذقنه بعض الشعرات، فإنه لن يشعر بذلك.

وذهب العبد المشؤوم إلى سيده، فملأ قلبه حنقًا وغيظًا، وكان مما قال له: إن سيدتي تنوي قتلك، وهي عازمة هذه الليلة على هذه الفعلة: فكن حذرًا عند منامك.

ذهب الرجل لينام، وما هي إلا دقائق حتى ملأ الحجرة شخيرًا؛ ليرى ما ستفعل زوجته الحبيبة التي عاش معها أحلى ليالي العمر، زحفت المرأة إلى المطبخ، ثم أتت بالسكين لتأخذ من لحيته الشعرات التي ستنقذ حياتها من نكد الغيرات، وتوقف لهيب

العبرات، ولم يتمالك الرجل أعصابه، فنهض نهضة الأسد، ثم وثب عليها، فقتلها.

يقـول الراوي: ثم ذهب شيطان الإنس إلى أهل المرأة، فبلغهم بمـا فعل الرجل من قتل ابنتهم شر قتلة، فجاؤوا فقتلوه، ثم ارتفعت الصيحـات، ودقـت نواقيـس الحرب بين أهـل المرأة وأهـل الزوج، فحدث ما حدث.

أخي الزوج أختي الزوجة:

- كونـا على وعي بما يحاك ضدكمـا، واستعينا بالله ﷻ أن يصرف عنكما، ويجنبكما شياطين الإنس والجن.
- إذا سمـع أحدكما ما يسوؤه فليتبين، وليتثبت قبل ردود الأفعال السريعة.
- من يضع أذنه على كل هاتف، يسمع الكثير من الكذب والقليل من الصدق.
- إذا تحقـق أحدكما من صحة ما سمع، فليبادر بالحوار الهـادئ الهـادف، فليـس أفضـل من الحـوار لاحتواء الأزمات، وحل المشكلات.
- ليثـق كلٌّ منكما في صاحبه، فالثقـة هي الجسر الآمن للبر الآمن.

٦. المقارنات المؤلمة:

لأتفه الأسباب تثور الحسناء على زوجها، فتذكره بأفعال فلان وفلان مع زوجاتهن وكيف تُلّبى طلباتهن؛ لأن لديهن أزواجًا يفهمونهن، ويحترمونهن.

إن فلان يذهب بزوجته السوق يوم الـ٢٥ من كل شهر.

وفلان يسافر كل إجازة مع زوجته إلى...، وفلان كذا وكذا، وتطول المقارنات، حتى تدمي قلبه، ويولد في قلبه إحساس مؤلم أن هذه المرأة لا تحبني، فهي تتمنى أن أكون نسخة من فلان، وهنا ينسلّ الحب من القلب أو يضمحل، ويفكر الزوج في هذه المصيبة التي ثقل بها رأسه، فينام حزينًا كئيبًا تعيسًا.

ويزداد الأمر سوءًا، عندما تجتمع التافهات منهن، فتصف إحداهن ما يقدمه لها زوجها من خدمات، وما يقدمه لها من هدايا وكماليات، وربما تكون كاذبة في كل ما تقول، لكنها تريد تعويض النقص الذي يحزنها، ويقضّ مضجعها، فتفسد بذلك صويحباتها على أزواجهن، ويخيل للواحدة منهن أن زوجها أبخل من مادر، فتندب حظها السيئ، وتعود لتصب غضبها، وما أوغر صدرها على زوجها، فتحدث النفرة، ويبدأ الصدام، فيتعرض جدار الزوجة للتصدع، وربما للهدم.

والمقارنات أسوأ في حق الرجال: فقد يمتدح الزوج امرأة صديقه أو جاره، ليغرز بذلك سكينًا في قلب زوجته، ويجعلها تعيش

حالة مـن البؤس والحزن، فلا تكاد تزول جـروح هذه الكلمات، ولو بعد حين.

أخي الزوج:

إنك تشتم زوجتك، عندما تمدح أخرى.

خُذْ ما تراه وَدَعْ شَيئًا سَمِعتَ بِه ... في مَطْلعِ الشَّمسِ ما يُغنيكَ عنْ زُحلِ

المديح السلبي:

في بعض الأحيان تمـدح الزوجة امـرأة أخرى أمـام زوجها، وتصـور له – جهلًا – محاسنهـا وأوصافها التي يريدها الرجل من المـرأة، وتفاجأ فيما بعد بأنه يحاول الوقوف على ما حُدّث به، وربما أقام علاقة غير شرعية مع هذه المرأة، بسبب هذه الزوجة الجاهلة.

وإن كان الـزوج راغبًـا في الزواج تمنى هـذه الممدوحة، وربما تزوجها، فتكون هي التي مهدت له الطريق إلى هذا الواقع.

وقد حذر المصطفـى ﷺ أن تصف الزوجة لزوجها امرأة أخرى، فقال: «**لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**»[1].

ومن مظاهر المديح السلبي ما يحصل من مدح الرجل لزملائه أمام امرأته، فيصف صديقـه أو زميله في العمل باللطف أو الخفة،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٤٠).

فيكـون بذلك قد رسـم في ذهنها صورة ذهبية لذلـك الرجل، وكم سمعنا من القصـص المؤلمة التي كان الزوج سببًا في انزلاق الزوجة إلى مستنقع الرذيلة.

يا قَومِ أُذْنِي لبعَضِ الحيِّ عاشِقةٌ والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العينِ أَحْيانا

الأنانية تقتل الحب

الزوجان اثنان، وكيانان مستقلان، لكنهما أسرة واحدة، ومستقبل واحد، ونواة واحدة، وبنيان واحد، ومصلحة واحدة.

وإذا حاول أحدهما التعالي على صاحبه ضعفت رابطة الاتصال، وذابت مادة الامتزاج.

إن تضخيم الأنا، والتمحور حول الذات، يساعد على إضعاف الرابطة الزوجية بين الزوجين، ويقصي قطبيها عن بعضهما. نعم؛ لأن الأنانية تعزل صاحبها، والحياة الزوجية شراكة اجتماعية وروحية لا تكتمل لذائذها إلا بمعرفة أحقية الشراكة.

أنا مَنْ أَهْوَى ومَنْ أَهْوَى أنا ... نَحْنُ روحانِ حَلَلْنا بَدَنا

فَإذا أبْصَرْتَني أبْصَرْتَه ... وَإذا أبْصَرْتَه كانَ أَنا

رُوحُه رُوحِي ورُوحِي رُوحُه ... مَنْ رَأَى رُوحَينِ حَلّا بَدَنا

الزوج لا يتقاضى مالًا لإطعام زوجته، ولا لسكناها في بيته، وهي لا تتقاضى مالًا لتربية أولاده، والقيام على خدمته؛ لأنهما يعملان لهدف واحد وغاية واحدة ومستقبل واحد.

الأناني يكرهه من لا يتعامل معه، فكيف بمن يجالسه صباح مساء؟!

أخي الزوج:

إن أعطاك الله صفات حميدة، أو نجاحات دنيوية، من علم أو مال أو صحة، فلا تتعالَ بها على من كان لها الفضل في نيل مآربك، وبلوغ أحلامك، وتذكر أنك في بيتك - يوم تكون هناك - لست بين طلاب علمك، ولا زبائن متجرك ولا بين موظفيك.

أنت في البيت مجرّد الألقاب، إلا من لقب الزوج.

يذكر أن أحد المحدِّثين كان يرى أن زوجته لا تحفل بعلمه كثيرًا، فقال لها: لو جئتِ إلى حلقة درسي لرأيتِ جمعًا غفيرًا من الرجال والنساء، فحضرت إحدى محاضراته، وعندما عادا إلى البيت سألها: أرأيت؟

قالت: نعم، رأيت مهرِّجًا لا يصمت، يهذي بكلمات غير مفهومة، بينما الناس جالسون مؤدبون ومحترمون يراقبون المشهد.

أختي الزوجة:

إن وهبك الله الجمال أو المال، فلم يهبك خيرًا من زوج، هو دليلك وطريقك إلى الجنة، فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك.

فإياك أن يقودك هذان إلى التعالي على الزوج!

لقد قدمت خديجة ﵂ خدماتها الجليلة لنبينا محمد ﷺ بنفسها، وقد كان في وسعها أن توظف مالها في خدمتها، فكانت تذهب بطعامه إلى الغار بنفسها، وكان في وسعها أن تنيب من يقوم بذلك، لكنها آثرت أن تنال رضاه، وتخدمه بنفسها؛ لأن ذلك كله في رضا رب العالمين.

وقد ضربت بعض النساء هذه الأيام أنموذجًا راقيًا في التعامل مع الزوج، فها هي إحداهن تهدي زوجها سيارة جديدة بمناسبة حصولها على درجة الماجستير، وعندما سئلت عن ذلك؟ قالت: إنه من شجعني، وحفزني، وبذل وأعطى، وأخذ من وقته الكثير ليساعدني حتى النهاية، وربما لم يفعل الكثير، لكنها تدرك عظم حقه، وتعلم أنه الجسر الذي ستصل من خلاله إلى جنات النعيم.

بينما نرى الكثير من النماذج السيئة من النساء، اللاتي قد يملكن المال الوفير، إلا أنه لم يستخدم في توثيق عرى الزوجية، ولم يسهم في زيادة نكهة الحب، فربما كان الزوج فقيرًا، وغلبته الديون، ومع ذلك لم تسهم في قضاء دينه، أو تخفيف أعبائه، ولا حتى التصدق عليه، بدعوى أنه ربما قوي، فتزوج.

أي امرأة هذه؟ وأي محبة هذه؟ وأي عيشة هذه؟

ما بال بعض النسوة تبذل الكثير من المال، في سرف كبير، وعلى شيء تافه وحقير، فربما بالغت في اقتناء الملابس والعطور

والمكياجات، وربما أسهمت مع صديقاتها في بعض الجمعيات، وربما أعطت أخاها وأختها بلا حساب، بينما لا يجد زوجها ما يقيم أوده، أو من يرحم حالته، فهي (حاتمية) الكرم مع أهلها وصديقاتها، (مادرية) البخل مع زوجها، ضاحكة مستبشرة خارج البيت، عابسة باسرة في بيتها.

إن من الأجدر أن ننتقل من الضمير (أنا) إلى الضمير (نحن) فهو المأمول بعيشة هانئة راضية، فإن (نحن) كثير و(أنا) أقل القليل.

والزوجان الناجحان شريكان في النجاح، فلا تعالي ولا أنانية ولا نظرة فوقية، بل ألفة ومحبة وتواضع:

قالَ لي المحبوبُ لما زرتُه ... مَنْ ببابي؟ قلتُ: بالبابِ أنا

قالَ لي: أخطأتَ تعريفَ الهوَى ... حينما فرّقْتَ فيما بَيننا

ومَضَى عامٌ، فلما جِئتُهُ ... أطرقُ البابَ عَلَيه موهنا

قالَ لي: مَنْ أنتَ؟ قلتُ: انظرْ فَما ... ثمَّ إلا أنتَ بالبابِ هُنا

قالَ لي: أحْسنتَ تعريفَ الهوَى ... وعرفتَ الحبَّ فادْخُلْ يا أنا

الطلاق

الطلاق لا يصنع حدًّا للمشكلات بقدر ما يزيدها تأججًا، خاصة إذا وجد الأطفال، فالطلاق إضافة إلى كونه مسؤولاً عن ضياع الأطفال، فهو يسهم كذلك في تفشي الأمراض الاجتماعية بجميع مظاهرها، وعلى رأسها انحراف الشباب.

الطلاق يعرض الأمة لأخطار التفسخ الاجتماعي، والتهميش الحضاري، ويعرض الأبناء لمهاوي الرذيلة، ووحول البطالة ومستنقع الفراغ القاتل الذي يقود إلى الجريمة والمخدرات.

بالطلاق يفقد الطفل حاجات الحب والحنان، وهي من الضروريات الأساسية للإنسان، ويصبح كاليتيم الذي فقد والده.

لَيسَ اليَتيمُ مَن انتَهى أَبَواهُ من ... هَمِّ الحَياةِ وَخَلَّفاهُ ذَليلا
فَأَصابَ بِالدُّنيا الحَكيمَةَ مِنهُما ... وَبِحُسنِ تَربِيَةِ الزَمانِ بَديلا
إِنَّ اليَتيمَ هُوَ الَّذي تَلقى لَهُ ... أُمًّا تَخَلَّتْ أَو أَبًا مَشغُولا

والطلاق هو آخر الحلول التي يلجا إليها الزوجان، عندما تتفاقم الأزمة الزوجية، ويصبح من الأصلح أن يفترق الزوجان.

لكن الجدير ذكره هو أن يبحث الزوجان عن حل المشكلات بشتى الطرق، ولا يدخران جهدًا في سبيل رأب الصدع، وإصلاح ذات البين.

عِشْرة آخر زمن:

ومـن المؤسـف أن يحدث الطـلاق هذه الأيام لأسبـاب تافهة، والـذي يبدو أن هـذا الجيل قد فـاق كل الأجيـال في ازدراء الحياة الزوجيـة واستهجانها، فالعلاقة الزوجيـة عند بعضهم أرخص من جهاز جوال.

قصص مضحكة، حكايات غريبة، تصرفات مؤسفة، إنه زمن غريـب، فمما قرأنا ومما سمعنا أن فلانًا طلق فلانة لأنها لم تصنع لـه الطبخة التي يريـد، وفلان طلق زوجته لخلافـه معها على نغمة الجوال، وهنا حدث الفراق لخلافهما على تسمية الطفل الصغير.

وقـد قـرأت في إحـدى المجلات قصـة طلاق عجيبـة مفادها أن الزوجـين بعـد انتهاء مراسم الحفل ذهبا إلـى بيت أهل الزوجة لتوديعهما، وذلك في ساعة متأخـرة، قال الراوي: فنظرت الأم (أم الزوجـة) إلى السيـارة التي تقل الزوج، فلم تـرق لها قالت: اذهب فـأتِ بسيارة أخرى تليق بابنتي، وطـال الحوار بينه وبين أم زوجته، فقال لزوجته: إما أن تركبي، وإما أن يكون شيء آخر.

أخذت العروس المسكينة تبكـي، فما استطاعت عصيان الأم، فقال الزوج: إذن أنت طالق.

وليـت القضية انتهت عند هذا الحد، لكنّ أبا العروس علم بما فعلت زوجته، فكان أن طلقها هي الأخرى في اللحظة نفسها.

نسب مخيفة:

لقد أصبح الطلاق سمة هذا العصر، وأصبح كبير المتربصين بخراب المجتمعات.

ففي دراسات مختلفة تبين أن نسب الطلاق تضاعفت في السنوات الأخيرة في كثير من الدول العربية.

ففي دراسة أجريت في السعودية عام ٢٠١٠م كشفت أن حصيلة الطلاق الواردة للمحاكم السعودية بلغت ٢٦٠٠٠ حالة، وجاءت مرتبة كما يأتي:

جدة في المرتبة الأولى بواقع ٣٩٣ حالة طلاق مقابل ١٠٠٠ حالة زواج، أي نحو ٤٠٪، وجاءت العاصمة الرياض في المرتبة الثانية بنسبة ٣٦٪.

بينما سجلت الكويت ٣٧٥ حالة طلاق من كل ١٠٠٠ حالة زواج، وسجلت قطر ٣٠٠ حالة طلاق من كل ١٠٠٠ حالة زواج، وذكرت مصادر تابعة للعربية أن المملكة تصدرت الدول العربية في معدلات الطلاق، فيوجد ٢٥ حالة طلاق مقابل حالة زواج واحدة يوميًّا (٢٠١٠م).

وهذه النسب المخيفة في زيادة مستمرة، وهذا ينذر بخطر داهم على المجتمع المسلم الذي يفترض فيه تقديس العلاقة الزوجية، واحترام مبادئها لينعم المجتمع بالطمأنينة والاستقرار.

أسباب تقود إلى الطلاق:

١. المعاصي:

وقد ذكرنا في باب سابق كيف تهدم عش الزوجية، وتقوض بنيانه، وأقصد بالمعاصي هنا ما كبر منها، واستفحل، وعرف أثره السيئ، وإلا فإننا جميعًا نسيء بالليل والنهار والله المستعان، فلنبادر بالتوبة والأوبة، فإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الأزواج مفرط الحساسية، فقد يرغي ويزيد عندما تترك المرأة بعض النوافل كصلاة الضحى أو قيام الليل أو صيام تطوع، وكأن المسكينة اعتدت في السبت، أو عكفت على العجل، فيعرض العلاقة الزوجية إلى الهشاشة والانفصال؛ لأن الاحتكاك يليه الاستياء فالرفض.

والمصطفى ﷺ يقول: «**إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصّنت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت**»[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٩٩ رقم ١٦٦١)، والبزار (٢/٣٦٠ رقم ٧٤٨٠)، وصححه ابن حبان في صحيحه (٩/٤٧١ رقم ٤١٦٣). وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢/١٩٦ رقم ١٩٣٢): حسن لغيره.

٢. سوء التعامل:

فبعض الأزواج كالأسد الهصور، وقد يكون خارج البيت كالأرنب المريض، فلا يلبث عند دخوله حتى يتحول إلى وحش كاسر، فلا يقف في وجهه أحد، ولا يسمح لأحد بالمناقشة، بل يأمر وينهى، وعلى الجميع أن يستجيب، فيتحول البيت إلى جحر ذئب، وتنفر الزوجة منه، وينفر الأولاد كذلك، وقد يكون التعامل السيئ من المرأة، فبعض النساء كصرصار الليل، لا تكاد تصمت، فالزوج في قفص الاتهام دائمًا وهي المجني عليها دائمًا، وربما مارست دور القاضي المرتشي، ويبدأ التحقيق مع الزوج بأسئلة طويلة سخيفة.

أين كنت؟ أين ستذهب؟

لماذا تأخرت؟ من الذي اتصل بك؟ وماذا يريد؟

هذه الأسئلة المزعجة تجعل صدر الزوج ضيقًا حرجًا، فكأنها تقول له: (إنك لن تستطيع معي صبرًا)، وأخشى أن يقول لها: (إن سألتك عن شي بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا)، فتلح أكثر، وتسأل أكثر حتى يقول: (هذا فراق بيني وبينك).

يَهيمُ بهَا قَلْبي وتأبَى خَلائقي ... ويَأنفُ طبعِي أَن أقرَّ علَى أَذَى

مليحةُ وَجهٍ غيرَ أَن فعالَها ... قبَاحٌ وَهَذَا لَا يفِي عِندنَا بذا

فإنْ قيلَ لِي صبرًا عَلَيْها لحسنِها ... فَقلتُ وَمَا صَبرُ الْعُيُونِ علَى القَذا

٣. هجر الزوج للبيت:

في عالم اليوم كثرت مشاغل الحياة، وأصبح ما كنا نعده أمرًا ثانويًّا أو كماليًّا فيما مضى، أصبح اليوم من الأساسيات الحياتية، وتوفير سبل العيش الكريم أصبح غاية في الصعوبة، ما يضطر الزوج أحيانًا إلى العمل طوال اليوم، أو القيام بعمل إضافي ليفي بمتطلبات العيش في الزمن الصعب.

هناك فئات أخرى من الأزواج يقضون جل أوقاتهم مع أصدقائهم وزملائهم في المقاهي أو في الاستراحات، ويكون همهم لعب الورق ومشاهدة الشاشات من أخبار ومسلسلات ومباريات، دون أن يعي هؤلاء بالمربع الذي يعيشون فيه، فيخلف أحدهم زوجته لتعاني أزمة الوحدة بمفردها، أو تعاني عمل المنزل وتربية الأولاد بمفردها، وكأن هذا الزوج خروف جلبه صاحب الأغنام لتحسين النسل وزيادة الإنتاج، فلا علاقة له بأبنائه، وربما تزوج بأخرى، ومارس الدور نفسه، مدعيًا بجهالته أن التربية شأن خاص بالأم ولا علاقة للأب بشيء من ذلك، فهو لتوفير الطعام وشراء ملابس العيد، فيتولى الشارع والإعلام تربية الأولاد لينشؤوا نشأة سيئة.

هجر من نوع خاص:

وفي بعض البيوت يكون هجر الزوج لزوجته، وهو مقيم معها، فهو في مجلس الأسرة وبجوار زوجته، إلا أنه مشغول بالإنترنت أو

الجرائد أو حتى في أشياء قد يكون ظاهرها مفيدًا كالقراءة والكتابة وممارسة التمارين الرياضية، إلا أنه لا يعطي من وقته لرفيقة دربه، فتذبل زهور الحب، وتتصدع أرضه نتيجة جفاف العواطف، وبعدها تصبح الحياة مع هذا الزوج جدبًا مقفرًا لا كلأ فيه ولا ماء، ما يؤذن برحيل الزوجة.

كتب أحدهم ورقة لزوجته في أثناء مباريات كأس العالم جاء فيها:

عزيزتي: في أثناء المباريات يرجى اتباع التعليمات الآتية:

- تمنع الطلبات في أثناء المباريات.
- يمنع الحديث الجانبي الذي لا يمت للمباراة بصلة.
- يمنع المرور من أمام شاشة التلفاز في أثناء المباراة.
- يمنع إحضار سفرة الطعام أو تحضيره وقت المباراة.
- يجب ألا يسمع صوت الطفل في أثناء المباراة.
- الشاي والقهوة يجب إحضارها قبل المباراة بعشر دقائق.
- أرجو ألا يحضر أحد من أهلك حتى نهاية التصفيات، وأخذ توقيعها على ذلك.

٤. العجز الجنسي:

يقولون: طريق الطلاق تبدأ من الفراش، ولربما كانت ذروة متع الحياة المعاشرة الزوجية.

فإذا عاش أحد الزوجين دونما إشباع جنسي حدثت النفرة، إن الجوع الجنسي الذي يعانيه أحد الزوجين يجعل من الحياة الزوجية جحيمًا لا يطاق، فلا تلبث الحياة أن تنهار، ليمضي كلٌّ في طريق.

وقد يكون العجز الجنسي ناتجًا عن حالة نفسية قلقة، فالقلق الذي هو داء العصر هو أكبر مسببات العجز الجنسي.

ويحسن بمن يصاب بداء القلق أن يبحث وبسرعة عن العلاج المناسب قبل تفاقم الأمر، فالقلق لا يجرد الماضي من مآسيه، لكنه يجرد الحاضر من أفراحه، ويرسم مستقبلًا أسود.

ويجب الحذر من استخدام الأدوية التي تزيد من الطاقة دون استشارة الطبيب.

٥. الفارق العمري والتعليمي والاجتماعي

يرى علماء الاجتماع أن الفارق بين عمر الزوجين يجب ألا يزيد على عشر سنوات أو خمسة عشر عامًا، ويفضل أن يكون لمصلحة الزوج، وأقول هنا: إن المسألة نسبية، ففي بعض المجتمعات تجد أن من الطبيعي أن يكون الفارق الزمني بين الزوجين أكثر من عشرين سنة، ومع ذلك يعيش الزوجان حياة مستقرة، لكنها ليست الحالة المثالية، فكلما تقارب سن الزوجين كان أدعى للوفاق الفكري والاجتماعي.

كذلك الفرق في التعليم، وأعتقد أن حصول أحد الزوجين على الشهادة المتوسطة كافٍ لتضييق الفجوة بينهما، فما فوق هذه الشهادة مسائل تخصصية بحتة، كذلك فإن صاحب هذه الشهادة بإمكانه الاطلاع على كل ما هو جديد وفهمه جيدًا.

ولا شك أن ارتباط زوجين مختلفين في مستوى المعيشة قبل الزواج يؤثر سلبًا في سير حياتهما مستقبلًا، فغالبًا ما يفشل الزواج الذي يربط بين فتاة مترفة وشاب فقير لا يستطيع توفير متطلبات عيش الأغنياء، وإن عاشا زمنًا على فتات الحب، فإن القلوب تتبدل، وتتغير.

أيضًا يؤثر الفارق الاجتماعي، واختلاف الطباع بين الزوجين سلبًا في حياتهما، فالمرأة الحضرية لا يمكنها العيش مع رجل البادية، وكذلك البدوية تجد صعوبة بالغة في عيش المدينة:

أيُّها المنكحُ الثريّا سُهيلا ... عمرُك الله كيفَ يلتقيانِ

هيَ شاميَّةٌ إذا ما استقلّتْ ... وسُهيل إذا استقلَّ يمانِي

وقد حنّت ميسونة زوج معاوية إلى موطنها في البادية، وودّت لو لم تكن ذهبت إلى الشام، ولو كان زوجها خليفة المسلمين، وهي القائلة:

لبيتٌ تخفقُ الأرياحُ فيه ... أحبُّ إليَّ منْ قصرٍ منيفِ

ولبسُ عباءةٍ وتقرَّ عينِي ... أحبُّ إليَّ من لبسِ الشَّفوفِ

٦. عدم إنجاب الأطفال:

يضطر أحد الزوجين إلى مفارقة عش الزوجية إذا لم يجد أطفالاً حوله، وهنا تجدر الإشارة إلى أن على الزوجين التريث في الانفصال، خاصة إذا كانت التحاليل الطبية تثبت أن المسألة تتعلق بضعف في السوائل المنوية، وليس عقمًا.

أما إذا ثبت عقم أحدهما فهذه مسألة أخرى، ويحق للزوجة هنا إذا كان الزوج عقيمًا أن تطلب الانفصال.

٧. الغضب:

وربما كان أكثر الأسباب شيوعًا، ويزيد الأمر سوءًا إذا كان الزوج ممن يجهل أمور الطلاق، فيحلف به صباح مساء، ولا يعلم أن الله ﷻ قد سمى الرابطة الزوجية: (ميثاقًا غليظًا).

والغضب حالة نفسية تفقد صاحبها التوازن الفكري، ويصبح في حالة من انعدام اتزان الشخصية، وربما ارتفعت درجة حرارته، وازداد تدفق دمه، فيتغير لون الوجه تبعًا لذلك، والغضب أمر طبيعي، لكن الحالة الشاذة فيه أن يتصرف الإنسان في قضايا مهمة ومصيرية في أثناء غضبه، فيتخذ قرارت صارمة غالبًا ما تكون خاطئة وضارة، ويندم بعد ذلك، ولكن حين لا ينفع الندم.

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكُسَعِيّ لما ... غَدَتْ مِنّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ

وقد علمنا نبي الهدى ﷺ كيفية التعامل مع حالات الغضب وإطفاء نيرانه بأسلوب تربوي علمي عجيب.

- فإذا كان الغاضب واقفًا، فليجلس.
- وإذا غضب فليتوضأ.
- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

وقد صاغ أبوالدرداء قاعدة زوجية رائعة في التعامل مع الزوجة عند الغضب، فقد قال أبو الدرداء لأم الدرداء: إذا غضبتِ أرضيتك، وإذا غضبتُ فأرضيني، فإنك إن لم تفعلي ذلك، فما أسرع ما نتفرق. ثم قال إبراهيم بن أدهم لبقية: يا أخي - وكان يؤاخيه - هكذا الأخوان، أن لم يكونوا كذا ما أسرع ما يتفرقون [١].

وقد زادت ضغوط الحياة ومشكلاتها من غضب الإنسان وحنقه، فأصبح البعض يثور لأتفه الأسباب، فتحمر عيناه، وتنتفخ أوداجه، وينفلت لسانه، ويحضر الشيطان هذه الساعة التي يسهل عليه عندها قلب المفاهيم وتزيين الشتيمة وتحسين ما ليس بذلك.

يقضِي عَلَى المرءِ في أيامِ محنتِه حتَّى يَرَى حَسنًا ما ليسَ بالحسنِ

وأفضل طريقة للتعامل مع الغضب ما أرشد إليه المصطفى من تغيير الوضع القائم، فيمكن للزوج الخروج من المنزل، ويمكن للزوجة أن تذهب لإحدى الحجرات الأخرى.

---

(١) انظر: تهذيب الكمال (٣٥/٣٥٤)، وتاريخ دمشق (٧٠/١٥١).

وهنا أدعو أخي الزوج وأختي الزوجة إلى التحلي بالصبر والحلم، فإنهما أجمل ما يلبسه الإنسان، فبالصبر تنال الأجر، ويكفي أن الله ﷻ في معية الصابرين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وبالصبر تنال المنى، ويذهب الأذى، ويحصل الإنسان على ما يريد بإذن الله.

أخلقْ بذي الصَّبرِ أنْ يحظَى بحاجتِه ومُدمنُ القرعِ لِلْأبوابِ أنْ يَلِجا

وينال الصابر جميل العواقب؛ لأن مع العسر يسرًا، وللبداية المحرقة نهاية مشرقة.

الصَّبرُ مثلُ اسمِه مرٌّ مذاقتُه لكنْ عواقبُه أحلَى منَ العسلِ

قصة ذكر الشيخ سعيد بن مسفر القحطاني أن أحد الشباب وصل به الحال مع زوجته إلى أن صرخت في وجهه، وأحضرت ورقة وقلمًا، وقالت: طلقني فلم أعد أريدك، إن كنت رجلًا فطلقني، فاسترجع الرجل، وكتم غيظه الذي يتأجج في جوفه، فقال: حسنًا، دعي الورقة والقلم هنا، وفي الصباح سأكتب كل ما تريدين، وذهب لينام.

وفي الصباح عندما التقت الأعين ابتسم لها، ثم قال: أعطِني الورقة، فكان أن ارتمت على زوجها، وشكرته على رجاحة عقله.

فـالله جعل مسألـة الطلاق بيد الرجل، وليس بيـد المرأة؛ لأنه المؤمـل في تحمـل أزمـات الزوجية، وحسـن إدارة الأسـرة؛ حتى لا تحدث الكارثة.

إذا سألـت الزوجـة الطـلاق في ساعـات الغضب فاحـذر أن يجرك الشيطان إلى ساحة الصراع، فالمسألة ليست (يا أنا يا أنت) أو أنهـا مسألة خاسر وكاسب، إنها أكبر من ذلك بكثير، إنها خراب بيت وفراق أحباب، وضياع أطفال، وإعاقة حضارية، ورِدّة فكرية.

الزواج ليس شراكة مالية، ولا صداقة مؤقتة، ولا زمالة دراسة، إنه ارتباط رباني وميثاق غليظ ورباط مقدس.

لنتذكـر أن الله ﷻ امتـدح الكاظمـين الغيـظ والعافـين عن النـاس، فقـال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ولنتذكر قول معلم البشرية: «**ليس الشديد بالصرعة، وإنما الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١).

٨. الإعلام:

يصـور الإعلام الساقـط الحيـاة الزوجية أحيانًـا بالسجن، وأحيانًـا يحرض الزوجة علـى الخيانة، ويروج للعلاقـات العاطفية

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٤)، ومسلم (رقم ٢٦٠٩).

المحرمة، ويصور أيضًا للزوج الحسناوات في كل مسلسل وفي كل فيلم أو حتى دعاية عابرة، فيبدأ بمقارنتهن مع زوجته في تعاملها مع العشيق وراء الشاشة، وفي علاقات الحب والغرام، والهيام، والكلام المعسول، فيجد الفرق الشاسع، والبون الواسع، وربما كان الحال كذلك بالنسبة إلى زوجته، متناسين أن الساقطين وراء الشاشات من الممثلين والممثلات تجمعهم فقط هذه الرذائل، فتظهر المرأة وكذلك الرجل بعد ساعات من عمليات التجميل، وربما كان ذلك الممثل أو كانت الممثلة في بيتها كعود الدمن أو كخنزير المزرعة.

وإدمان الإنترنت لأيٍّ من الزوجين ربما كان أشد ضررًا وضراوة في الفتك بحياة الزوجين.

والهاتف الجوال وسوء استخدامه من قبل أحد الزوجين أو كليهما، أدى إلى خصومات ومشاجرات، ينتهي في الغالب معظمها إلى الطلاق، والواقع ناطق بذلك، وربما استغله أقارب الزوجين ممن يحسدونهما على الحياة الهانئة، فروجوا صورًا أو رسائل تؤدي في النهاية إلى زعزعة الثقة بين الزوجين، وربما حدث الفراق.

٩. غياب العدل بين الزوجات:

عندما ترى المرأة ظلم زوجها لها، وذلك بتفضيل غيرها من زوجاته في التعامل أو الهدية أو المبيت، فإنها تطالب بالطلاق ويحصل هذا بسبب رعونة الزوج وجهله، عندما يُقدم على عمل

كهـذا، وليس أهلًا له، فيذرهـا كالمعلقة، وقد ورد الوعيد الشديد في حق هؤلاء الظلمة.

يقـول الرسول ﷺ: «**من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**»(١).

وقد عـذر الله ﷻ من يخاف ظلم زوجاته بالتعدد، فقال ﷻ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

وليست الحكمة في التعدد هي إرواء الشهوة، وتكثير سواد الأمة فحسب، بل إعفـاف المسلمات، وإعفاف الزوج، وحماية المجتمع من الأوبئة التي قد تفتك به.

فمـا حاجتنـا فيمـن يتـزوج الاثنتين والثـلاث والأربـع، ثم لا يعرفهـن إلا عند المبيت، وما حاجتنـا برجل لديه عشرون ابنًا أهمل تربيتهم، فتحولوا إلى أفاعٍ تنفث سمومها في شوارع المدن والقرى.

إن خـيرًا مـن هـذا، مـن كانـت لـه زوجـة، وكان له طفـل أو اثنـان، فأحسن تربيتهما، وعلمهـم تعليمًا جيدًا، فامتد نفعهما على المجتمع بأسره.

---

(١) أخرجـه أبـو داود (رقـم ٢١٣٥)، وصححه الحافظ ابن حجـر في بلوغ المرام (رقم ١٠٥٦)، وابـن الملقـن في البدر المنـير (٣٧/٨)، والألبـاني في إرواء الغليل (٨٠/٧ رقم ٢٠١٧).

قصة **يقال:** إن أحد الأعراب طلق خمس نساء، فكان له أربع زوجات في دار واحدة، وعندما عاد إلى البيت وجد اثنتين يتشاجران، وقد علت صيحاتهما، فطلقهما، فقالت الثالثة: إنك امرؤ سوء، كيف تفعل هذا؟

قال: وأنت طالق، فقالت الرابعة: لقد تعجلت يا هذا، قال: وأنت طالق، وعندما علمت امرأة جاره بما فعل، قالت: خيبك الله، تطلق نساءك في يوم واحد؟

قال وأنت طالق، إن أذن زوجك، فصاح زوجها: قد أذنت، قد أذنت.

ويقال: إن أحد الأعراب أيضًا شكا على جاره سوء عشرة زوجته، فقال: تزوج، فلن يكسر أنفها غير الزواج بأخرى، ففعل، فانقلبت حياته إلى أسوأ مما كانت عليه، فقال في ذلك:

تزوجتُ اثْنتين لفرط جَهلي ... بما يلْقاهُ زَوجُ الاثْنتين

فَقُلتُ: أعيشُ بَينَهما خَروفًا ... يَنعمُ بَينَ أحْلَى نَعجَتين

فَصرتُ كنعجةٍ تُضحي وتُمسي ... تَداولُ بَينَ أخْبث ذئْبتين

المراجع

- الإستنبولي، محمود مهدي. **تحفة العروسين**. الطبعة الأولى للطبعة الشرعية، مكتبة المعارف للنشر، ١٤٢٢هـ.
- الأكرمي، عبدالله. **نافذة التغيير**. الطبعة الأولى، جدة: الناشر المؤلف، ١٤٣٥هـ.
- تشامبان، جاري. **لغات الحب الخمس**. ترجمة مكتبة جرير، ٢٠١١م.
- الداود، عبدالله. **المرأة البحر والرجل المحيط**. الطبعة الثانية، الناشر المؤلف، ١٤٢٩هـ.
- الزهراني، ناصر. **ليلة العمر**. الطبعة الثانية، الرياض: العبيكان، ١٤٢٩هـ.
- ماكجرو، فليب. **كيف تنقذ علاقتك الزوجية من الانهيار**. الطبعة الثانية، ترجمة مكتبة جرير، ٢٠٠٩م.
- ابن مسفر، سعيد. **هدية إلى كل عروسين**. شريط كاسيت.
- الجوزية، ابن قيم، روضة المحبين.